بسم الله الرحمن الرحيم

التشبيه التمثيلى بين النظرية والتطبيق

دراسة تطبيقية على سورة إبراهيم

د/ أسماء السيد السيد شعبان

المدرس بقسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات الاسكندرية

التشبيه التمثيلى

دعا القرآن إلى الإيمان بالبعث وباليقين بالدار الآخرة ، لكن تلك الدعوة لقيت صدوداً من الكافرين ، عُناداً من المشركين ، فكان لابد أن يتضمن القرآن من أساليب البيان والتصوير ما يزهدهم فى الدنيا ويرغبهم فى الآخرة ، ويحتوى من صور التمثيل ما يصور قصر الحياة الدنيا ، التى عظموها بقولهم : « ما هى إلا حياتنا الدنيا » [1] ويسمو بالحياة الآخرة ، ويكشف لهم عن حقيقتها ، ويجسم أعمال الكافرين وفنائها ، ويصور حالة الإيمان والكفر .

لعلماء البلاغة ثلاث آراء فى التشبيه التمثيلى :

١ ـ رأى الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) :

بحث التشبيه التمثيلى ، وأرسى قواعده على أسس من الدراسة الواعية الفاحصة ، مما فتح الطريق للعلماء بعده للاهتمام به ، لأنه يحتاج إلى إعمال الفكر ، ودقة النظر ، فالتشبيه التمثيلى عند عبد القاهر هو « مالايكون الوجه فيه بيناً بنفسه بل يحتاج فى تحصيله إلى ضرب من التأول ، والصرف عن الظاهر ، لأن المشبه لم يشارك المشبه به فى صفته الحقيقية ، وذلك الوجه يتحقق فيما إذا كان الوجه ليس حسيا ولا من الأخلاق والغرائز ، والطباع العقلية الحقيقية ، ولكنه يكون عقلياً غير حقيقى ، أى غير متقرر فى ذات الموصوف » [2] .

وقد مثل له عبد القاهر بقوله « هذه حجة كالشمس فى الظهور » .

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٤ .

(١) أسرار البلاغة ص ٩٠ وما بعدها ، وانظر من بلاغة النظم العربى : د/ عبد العزيز عرفه ص ٨١ ط ثانية .

وتتفاوت طريقة التأويل فمنه :

١ ـ « ما يقربُ مأخذهُ ويسهل الوصول إليه ، حتى أنه يكاد يداخل الضرب الذى ليس من التأول فى شئ ، نحو « ألفاظه كالماء فى السلاسة ، وكالنسيم فى الرقة ، وكالعسل فى الحلاوة » يريدون أن اللفظ لا يستغلق ، ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه ، وليس هو بغريب وحشى يُستكره لكونه غير مألوف ، أو ليس فى حروفه تكريرٌ وتنافر يُكد اللسان من أجلهما ، فصارت لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق ، والنسيم الذى يسرى فى البدن ، ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويُهدى إلى القلب روحاً ، ويوجد فى الصدر إنشراحاً ، ويُفيد النفس نشاطاً ، وكالعسل الذى يلَذّ طعمه ، وتهش له ، ويميل الطبع إليه ، ويُحبُّ ورودُه عليه ، فهذا كله تأول »[(١)] .

٢ ـ ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل ، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل روية ولطف فكره ، وهذا يحتاج إلى فهمه من له ذهن ونظر يرتفع عن طبقة العامة يقول : (وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فنحو كعب الأشقرى ، وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله فى آخر القصة قال : « فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فإذا أليلوا ففرسان البيات ، قال : فأيُّهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يُدرى أين طرفاها » فهكذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ؟) [(٢)] .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٩٣ .　　(٢) الأسرار ص ٩٣ ـ ٩٤ .

ويذكر عبد القاهر الفرق بين التشبيه والتمثيل فيقول : -

(وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل خاص)[1] .

وبذلك يتضح ، أن التشبيه غير التمثيل عند عبد القاهر الجرجانى يكون وجه الشبه فيه حسياً ، كما يكون وجه الشبه فيه عقلياً حقيقياً ، أى ثابتاً فى ذات الموصوف كالأخلاق والغرائز والطباع ، وهذا الضرب يسميه الإمام عبد القاهر ، التشبيه الظاهر ، وقد يطلق عليه التشبيه الصريح ، وقد يسميه التشبيه الأصلى الحقيقى [2] .

وجاء عبد القاهر بأمثلة لذلك كتشبيه الخدود بالورد ، والشعر بالليل ، وغيرها من الأمثلة ... ثم يقول الإمام بعد ذلك ، فالشبه فى هذا كله بيّن لا يجرى فيه التأول ولا يفتقر إليه فى تحصيله ، وأى تأول يجرى فى مشابهة الخد بالورد فى الحمرة ، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؛ وكذلك تعلم الشجاعة فى الأسد كما تعلمها فى الرجل ،[3] .

٢ - رأى السكاكى (ت٦٢٦هـ) :

يرى السكاكى أن التمثيل هو ماكان وجه الشبه فيه منتزعاً من عدة أمور ، أى أن وجه الشبه مركب عقلى غير حقيقى ، فيقول : ، واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقى ، وكان منتزعاً من عدة أمور خص باسم التمثيل كالذى فى قوله :

---

(١) الأسرار ص ٩٧ .

(٢) من بلاغة النظم العربى ص ٨٧ - ٨٨ ، د/ عبد العزيز عرفة .

(٣) أسرار البلاغة ص ٩٠ - ٩٢ .

اصبر على مضض الحسو ٠٠ د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها ٠٠ إن لم تجد ما تأكله

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التى لا تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ، ليس إلا فى أمر متوهم له وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه فى المقاولة ، مع علمك بتطلبه إياها ، عسى أن يتوصل بها إى نفثة مصدور من قيامه ... وكالذى من قوله عز من قائل : « مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ » [1] .فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم فى الآية هو رفع الطمع إلى يتسنى مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة ، مع تعقيب الحرمان والخيبة ، لانقلاب الأسباب ، وأنه أمر توهمى كما ترى منتزع من أمور جمه [2] .

٣ - رأى الخطيب القزوينى (ت٧٣٩هـ) :

أما التمثيل عند الخطيب القزوينى - وجمهور البلاغيين من بعده فهو « ما كان وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور سواء كان عقلياً أو حسياً »[3] .

« أى أن يكون وجهه مركباً مطلقاً ، وهذا هو مذهب الخطيب والجمهور فلا فرق عندهم بين الوجه الحقيقى وغيره »[4] .

فالعقلى كقوله تعالى : « مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارً ..»

الآية١٧من سورة البقرة .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧ .
(٢) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٩١ - ١٩٢ ، مطبعة الحلبى .
(٣) الايضاح للقزوينى ص ٩٠ - ٩٤ جـ٤ ، مكتبة الكليات الأزهرية طـ٢ .
(٤) بغية الايضاح جـ٣ ص ٥٧ .

وقول ابن المعتز :

كـأن عـيـون النرجس الغـضى حـولنا ∴ مـداهن در حـشـوهن عـقـيق

الوجه فى الآية مركب عقلى وفى البيت مركب حسى .

ومما تقدم يظهر لنا ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه : -

(اتفقوا على أن وجه الشبه إذا كان مفرداً حسياً أوعقلياً حقيقياً فهو غير تمثيلى مثل « خده كالورد وهو كالأسد »

وكذلك اتفقوا على أنه إذا كان الوجه مركباً عقلياً فهو تشبيه تمثيلى نحو ما سبق من تشبيه الحسود فى إهلاكه لنفسه ، بسبب الصبر عليه ، فالنار تأكل نفسها إن لم تمد بالحطب .

واختلفوا فيما إذا كان الوجه مفرداً عقلياً غير حقيقى ، فالإمام يرى أنه تمثيل ، والسكاكى والخطيب لا يوافقانه على ذلك ، وكذلك إذا كان الوجه مركباً حسياً ، فالخطيب يرى أنه تمثيل مخالفاً فى ذلك الإمام والسكاكى [1].

(١) نظرات فى البيان ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، د/ محمد الكردى ١٩٧٦ م .

التشبيه التمثيلى فى سورة إبراهيم :

جاء التشبيه فى آيات ثلاثة فى هذه السورة ، الأول قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّت بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لايَقْدِرُونَ مِمَا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ » إبراهيم آية ١٨ .

والتشبيه الثانى فى قوله عز وجل : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » إبراهيم الآيتان ٢٤ ـ ٢٥ .

والتشبيه الثالث فى قوله عز وجل : « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ من فَوْقِ الأَرض مَالَهَا من قَرَارٍ ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذين آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فى الْحَياة الدُّنْيَا وَفِي الآخرة ويُضِلُّ اللَّهُ الظَالمين وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يشاء » إبراهيم الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ .

وتحليل هذه التشبيهات ، متوقف على معرفة السياق الذى جرت فيه ، فسورة إبراهيم من السور المكية ، التى امتزجت معانيها بعضها ببعض ، فقد تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة فى أصولها الكبيرة ، الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء .

وأول مثل ورد فى السورة الكريمة قوله عزوجل :

« مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّت بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لايَقْدِرُونَ مِمَا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ » إبراهيم آية ١٨ .

حكى الله تعالى استهزاء الكفار بالرسل وتكذيبهم ، وما يحاط بهم من ألوان العذاب يوم القيامة ، ثم وضح تعالى أن كل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا يبتغو بها الأجر من صدقة وصلة رحم وغيرها ، لا طائل من ورائها ولا فائدة منها [1] .

---

(١) صفوة التفاسير ص ٨٩ م٢ محمد على الصابونى . بتصرف .

فيصور الله سبحانه وتعالى « أعمالهم من الصدقة وصلة الرحم ، وأغاثة الملهوف وعتق الرقاب ، ونحو ذلك فى حبوطها وذهابها هباءً منثوراً ، لبنائها على غير أساس ، من معرفة الله تعالى ، والتوجه بها إليه ، وأعمالهم للأصنام برماد طيرته الريح العاصفة ، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم من شئ لحبوطه فلا يرون له أثراً من الثواب » [1].

وقد عقب الرمانى على هذه الآية فقال : « فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع علية الحاسة إلى ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك ، وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفى ذلك الحسرة العظيمة ، والموعظة البليغة » [2].

ونتأمل نظم الآية الكريمة فنجد فى لفظ (الرماد) وقد عبر به عن الهلاك وهو أسرع فى الفناء والضياع من لفظ (التراب) ، فكان أكثر مبالغة فى بلوغ هذا المعنى وتقريبه للأذهان .

« وفى تشبيه الأعمال بالرماد سرٌ بديع ، وذلك للتشابه بين أعمالهم وبين الرماد فى إحراق النار ، وإذهابها لأصل هذا وهذا ، فكانت الأعمال التى لغير الله ، وعلى غير مراده طعمة للنار ، وبها تسعر النار على أصحابها ، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً ... فأثرت النار فى أعمال هؤلاء حتى جعلتها رماداً ، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار » [3].

« ونتأمل صياغة حرف التعدية (اشتدت به) ولم يقل (اشتدت عليه) ليؤذن باقتلاعه وإثارته وإهاجته ، ثم نتأمل إسناد العصف إلى اليوم ، والأصل أن

---

(١) تفسير البيضاوى ٣٣٨ .
(٢) النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص ٧٦ .
(٣) التفسير القيم ص ٣٢٧ .

يسند إلى الريح ، وهو أحكم دلالة ومبالغة فى إسناد الحدث إلى زمانه ، والصورة فى قوله تعالى (لا يقدرون مما كسبوا على شئ) وهو تعقيب حكيم لأن كلمة (لايقدرون) فيها محاولة واستنفار أقصى الطاقة ، لتبلغ القدرة مبلغاً يصل بها إلى اقتناص ما كسبت ، ثم إخلادهم إلى التسليم والعجز ، وهذا وصف خفى للهول الذى لا يحاط به ،[1] .

وجملة (ذلك هو الضلال البعيد) تذييل جامع لخلاصة حالهم وهى أنها ضلال بعيد ، أى بعيد فى مسافات الضلال [2] . ولفظ اسم الاشارة الموضوع للبعيد (ذلك) يصور الغاية فى البعد عن طريق الحق .

، وواضح أن الصورة تزيد حركة وحياة بحركة الريح ، فى يوم عاصف تذرو الرماد وتذهب به بدداً حيث لا يتجمع أبداً ، [3] .

ثم ننتقل إلى المثل الثانى فى بيان كلمة الإيمان ، يقول تعالى :

، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، إبراهيم الآيتان ٢٤ ـ ٢٥ .

نزلت هذه الآية الكريمة بعد حساب أهل الجنة وأهل النار ، وخلود أهل الجنة فى الجنة ، وخلود أهل النار فى النار ، فقد ضرب الله تعالى مثلاً للكلمة

(١) دراسة فى البلاغة والشعر ص ٢٩ د/ محمد أبو موسى ، ط أولى .
(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ٢١٣ .
(٣) التصوير الفنى ص ٣٦ ، وانظر قبس من البيان القرآنى ص١٤١ ط أولى .

الطيبة ، وهى كلمة التوحيد ، أو أى كلمة طيبة كالتسبيح والتحميد ، والاستغفار والتوبة والدعوة ، والشجرة هنا هى كل شجرة مثمرة كالنخلة ، وشجرة التين ، والعنب والرمان وغير ذلك (١).

فقد صور الله سبحانه وتعالى حال الكلمة الطيبة من كلمة لاإله إلا الله أو كل كلمة حسنة بشجرة طيبة عروقها ثابته فى الأرض ، وفروعها فى السماء تعطى ثمرها فى كل حين بإذن الله ، فى ثبات ورسوخ الأصل وجمال المنظر والوفرة والمتعة .

ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر أن أصل تلك الكلمة ومنشأها وهو أن الإيمان ثابت فى قلوب المؤمنين ، وما يتفرع منها ، وينبنى عليها من الأعمال الصالحة ، والأفعال الزكية ، يصعد إلى السماء ، وما يترتب على ذلك من ثواب الله ورضاه ، هو الثمرة التى تؤتيها كل حين (٢).

وفى هذا المثل ترغيب وتشويق فى التلفظ بالكلم الطيب .

وعندما نتأمل الألفاظ الكريمة للمثل نجد أن الله سبحانه وتعالى : بدأ بالاستفهام بقوله « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً » ففيه إيقاظ للذهن ليترقب ما يرد بعد هذا الكلام ، ففيه تشويق إلى علم هذا المثل وإيثار « كيف » هنا للدلالة على أن حالة ضرب هذا المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغية وانطباقه.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٣٧٦ .

(٢) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم للألوسى جـ١٣ ص ٢١٤ .

ونتأمل لفظ « كلمة » فجاءت مفردة لإفادة السامع أن الكلمة ولو واحدة طيبة ، تؤتى كل هذه الثمار عند الله سبحانه وتعالى ، وقد وصف سبحانه هذه الكلمة بأنها « طيبة » أى نافعة وقد عبر بهذا اللفظ لحسن وقعه فى النفوس كوقع الروائح الذكية (١).

وعندما وصف الشجرة وصفها تعالى بصفات أربعة ، فجعل لها أصل راسخ باق آمن من الأنقلاع والانقطاع ، والزوال والفناء فالشئ الطيب إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ، ولا ينقض ، فإنه يعظم الفرع ، ويكمل السرور بسبب الفوزية .

« وفرعها فى السماء » يوحى بالنماء والبهجة وحسن المنظر ، ويوحى هذا الوصف على كمال تلك الشجرة من ارتفاع أغصانها مما يدل على ثبات الأصل ، وأنها متى كانت مرتفعة متصاعدة ، كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية ، فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب ،ويوحى لفظ « كل حين » بأن ثمر هذه الشجرة لا ينقطع أبداً ، ولا تكون مثل الأشجار التى تكون ثمارها حاضرة فى بعض الأوقات دون بعض .

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن ، فتحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة ، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لا يجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل فى الفوز بها (٢).

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ م١٠ / ص ١١٩ .

وإذا ما انتقلنا إلى المثل الثالث فى سورة إبراهيم نجده مقابلاً للمثل السابق ، « فقد مثل للكلمة الخبيثة على الضد بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد وضيق الصدر وكدر التفكير والضر المتعاقب »[1] .

يقول عزوجل « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ من فَوْقِ الأَرض مَالَهَا من قَرَارٍ » سورة إبراهيم الآية ٢٦ .

« والكلمة الخبيثة ، كلمة الشرك ، وقيل كل كلمة قبيحة ، وأما الشجرة الخبيثة ، فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجر الحنظل ونحو ذلك »[2] .

فقد صور حال كلمة الكفر وكل كلمة خبيثة من كذب ونميمة وغير ذلك بهيئة الشجرة الخبيثة وقد اقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها واستقرارها .

وقد أفاد هذا التشبيه عكس ما أفاده التشبية السابق فكلمة الكفر لا ثبات لها ولا بركة ولا فرع ولا أصل ، فالكافر لا يُقبل عمله ، ولا يصعد إلى السماء ، لأنه ليس فيه بركة ولا منفعة .

وعندمل نتأمل صفات هذه الشجرة فهى « خبيثة » تصوير لما عليه هذه الشجرة من الرداءة والقبح والضرر .

وجملة « اجتثت من فوق الأرض » صفة ثانية للشجرة ، لأن الناس لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها ، والاجتثاث قطع الشئ كله مشتق من الجثة ، وهى الذات ، ومن فوق الأرض تصوير لـ « اجتثت » ، وهذا مقابل قوله فى صفة الشجرة الطيبة « أصلها ثابت وفرعها فى السماء » .

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٢٢٤ .

(٢) الكشاف جـ٢ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

وجملة « مالها من قرار » تأكيد لمعنى الاجتثاث [1].

وهذا المثل فى صفة الكلمة الخبيثة فى غاية الكمال ، وذلك لأنه تعالى بيّن كونها موصوفة بالمضار ، وأما كونها خالية من كل المنافع فقد عبر بقوله « اجتثت » [2]. فلا عرق ثابت ، ولا فرع عال ، ولا ثمرة زاكية ، فلا أصل ولاجنى ولا ساق قائم وكذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله ولا يقبل منه .

ثم جاءت الآيات بعد ذلك تبين وتوضح أثر تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وأثر تمثيل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة ، ويقول عزوجل « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِين آمَنُواْ بالقَوْلِ الثَّابتِ فى الَحياة الدُّنْيَا وَفِي الآخرة ويُضلُّ اللَّهُ الظالمين وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يشاء » إبراهيم الآية ٢٧ .

الآية الكريمة توضح أن قلوب المؤمنين ثابتة على الإيمان ، إذ ثبتوا على الدين ، ولم يتزعزوا عنه ، لأنهم استثمروا من شجرة أصلها ثابت ، وفى المقابل قوله « يضل الله الظالمين » أى أنهم فى حيرة وعماية فى الدنيا وفى الآخرة ولفظ « الضلال » يوحى بما هم فيه من اضطراب وارتباك ، فهو الأثر المناسب لسببه أعنى الكلمة التى اجتثت من فوق الأرض [3].

ونجد فى هذين المثلين ، أنهما بمثابة تلخيص ، وتصوير لمعان جرت فى القرآن كثيراً ، تدور حول بيان الكفر والضلال ، والإيمان والتوحيد ، فالمؤمنون ثابتون على كلمة التوحيد ، والكافرين لا أصل لهم وإنما هم فى عماية وضلال .

على أننا إذا تأملنا عناصر التشبيهين من الشجرة الطيبة والأصل الثابت ، والفرع فى السماء ، والمقابل لها من الشجرة الخبيثة والاجتثاث من فوق الأرض ، نجد أنه ليس فى القرآن الكريم مثل هذه العناصر إلا فى هذين التشبيهين .

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٢٢٥ .
(٢) تفسير فخر الرازى جـ١٩ ص ١٢٤ .
(٣) التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٢٢٦ بتصرف .

خصائص التشبيه التمثيلى فى سورة إبراهيم :

مما سبق استعراضه من الآيات القرآنية يتضح لنا خصائص التشبيه فى سورة إبراهيم وأول ما يلفت النظر هو :

١ - أن عناصر التشبيه استمدت من الطبيعة ، فظاهرة الرماد الذى طيرته الريح ، ظاهرة طبيعية تحدث على مر الأجيال والعصور ، وهو صورة يعرفها البدوى والحضرى والجاهل والمتعلم ، وذلك هو سر خلود تشبيهات القرآن الكريم ، وكذلك الشجرة الطيبة النافعة التى تثمر دائماً ، الناضرة الأوراق ، الثابتة ، مما يشاهده الناس على مر العصور ، وعلى الضد من الشجرة الطيبة نجد الشجرة الخبيثة الضارة التى استئوصلت من فوق الأرض ، ولا ثمر ولا ورق لها ، فكل هذه التشبيهات تؤثر فى الناس جميعاً ، لأنهم يدركون عناصره ، ويرونها قريبة منهم ، وبين أيديهم .

٢ - أيضاً نجد أن عناصر هذه التشبيهات جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه ، وإذا سقط من الجملة إنهار المعنى من أساسه ، ونجد أن التشبيه هنا جاء ضرورة فى الآيات ، والمعنى هو الذى تطلبه وبذلك أصبح واضحاً قوياً .

٣ - نجد أيضاً هناك دقة فى تصوير الأعمال بالرماد الذى طيرته الريح فى يوم عاصف ، لا يستطيع أحد على الإمساك به ، وكذلك الدقة فى وصف الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة ، فهو يصف حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، فالشجرة الطيبة موصوفة بصفات أربعة ، والشجرة الخبيثة موصوفة بصفات ثلاثة.

٤ - ونجد أيضاً القدرة الفائقة فى اختيار الألفاظ الموحية الدقيقة من الرماد ، واليوم العاصف ، والريح ، والطيبة و الأصل الثابت ، والفرع فى السماء ، والخبيثة والاجتثاث ، وما لها من قرار .

وبذلك يتضح لنا الهدف من أمثال سورة إبراهيم :

وهو « التذكر والوعظ والحث والزجر والاعتبار » [1]. ففى تصوير أعمال الكفار بالرماد الذى اشتدت به الريح ، كل هذه المعانى وأيضاً فى تصوير الكلمة الطيبة و الكلمة الخبيثة والشجرة الطيبة والشجرةالخبيثة ، وأيضاً نجد هنا الترغيب فى الإيمان بالشجرة الطيبة ، والترهيب من الكفر بصورة الرماد ، والشجرة الخبيثة .

وهكذا نجد أن التشبيه التمثيلى ينقل النفس من الخفى إلى الجلى ، فالمعروف أن العلم المستفاد من طريق الحواس يفضل العلم المستفاد من جهة الفكر والعقل ، وقد قيل فى الأثر « ليس الخبر كاليقين ، وليس الظن كالمعاينة » كما أن العلم المستفاد من طريق الحواس أسبق إلى النفس من العلم المستفاد من طريق العقل والروية ، لأن العلم يجئ أولاً من طريق الحواس ثم من جهة العقل والفكر [2].

(١) البرهان للزركشى جـ ١ ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧ ، انظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٢ ص ٣١.

(٢) البيان فى ضوء أساليب القرآن ص ٦٢ د/ عبد الفتاح لا شين .

أهم مصادر البحث ومراجعه

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ أسرار البلاغة : تأليف الإمام عبد القاهر الجرجانى تعليق محمود محمد شاكر ، دار المدنى بجدة ، ط أولى ، ١٩٩١م .

٣ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوى : تأليف عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى ، دار الجيل لبنان .

٤ ـ الإيضاح فى علوم البلاغة : للخطيب القزوينى ، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة الكليات الأزهرية .

٥ ـ البرهان فى علوم القرآن للإمام محمد بن عبد الله الزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، صيدا ـ بيروت .

٦ ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علومالبلاغة : عبد المتعال الصعيدى ، ط الخامسة ـ المطبعة النموذجية .

٧ ـ التصوير الفنى فى القرآن: الاستاذ سيد قطب ـ دار المعارف بمصر، ط الثامنة.

٨ ـ تفسير التحرير والتنوير : للإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر .

٩ ـ تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب : للإمام محمد الرازى فخر الدين ، دار الفكر .

١٠ـ التفسير القيم للإمام ابن القيم : تحقيق محمد حامد الفقى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

١١ـ دراسة فى البلاغة والشعر : د/ محمد أبو موسى ، ط أولى ـ مكتبة وهبة .

١٢ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : للعلامة الألوسى البغدادى ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

١٣ـ صفوة التفاسير : تأليف الإمام محمد على الصابونى ـ دار الرشيد ـ سوريا ـ حلب .

١٤ـ علم البيان فى ضوء أساليب القرآن : د/ عبد الفتاح لا شين .

١٥ـ قبس من البيان القرآنى : د/ محمد حسن شرشر ـ ط أولى ـ دار الطباعة المحمدية .

١٦ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى ، دار الفكر ـ بيروت.

١٧ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن : للعلامة الراغب الأصفهانى : تحقيق نديم مرعشلى ـ دار الكاتب العربى .

١٨ـ مفتاح العلوم للسكاكى ـ مكتبة الحلبى .

١٩ـ من بلاغة القرآن : د/ أحمد أحمد بدوى ـ دار نهضة مصر ـ الفجالة القاهرة.

٢٠ـ من بلاغة النظم العربى : د/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة ـ ط ثانية ـ المطبعة الإسلامية الحديثة .

٢١ـ نظرات فى البيان : د/ محمد عبد الرحمن الكردى ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م .

٢٢ـ النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل : تحقيق د/ محمد خلف الله ، د/ محمد زغلول سلام ـ دار المعارف بمصر .